

الفصل الثالث

أسطورة البطل

تبين مما سبق أن المراهقة ليست ضرباً من التغير السحري الذى يتحول به الفتى أو الفتاة ، كما تتحول الضفدعة فى قصص الأطفال الخرافية إلى أمير ؛ وإنما هى قبل كل شئ ، مرحلة تغير تدريجى وثيد ، ولكنه مع ذلك تغير يبدل الفتى رجلاً ، والفتاة امرأة .

فعلينا إذن ، لو شئنا أن نفهم المعنى الحقيقى للمراهقة ، أن نعرف طبيعة هذا التغير ، وطبيعة المادة التى تنصب عليها عملية . وسنصادف أثناء بحث ذلك كثيراً من النقاط التى ظلت محوراً للجدل وقتاً طويلاً ، ومسائل شتى ذات أهمية نسبية تتصل بالطبيعة والتنمية ، وبالوراثة والبيئة ، وما أشبه ذلك . كما أننا سنناقش بعض المصطلحات التى فقدت كثيراً من دلالاتها بسبب التوسع فى استخدامها .

إن عملية التغير فى المراهقة تنصب ، لا على أمر معنوى أو حلم خيالى ، بل على مخلوق حقيقى ، هو الفتى أو الفتاة . فالكائن الذى تتبدل حياته ، ونظرته إلى الحياة بتأثير النضج التدريجى الذى يصيب أعضاء التناسل

والنزعات الجنسية ، وتأثير الظواهر الجنسية المفاجئة التي تصحب اكتمال النضج إنما هو كائن حتى يعتمد على خبرات حيوية استمدتها وتأثر بها في غضون أحد عشر ، أو اثني عشر ، أو ثلاثة عشر عاماً من حياته ، وله قدرات جسمانية نامية يقع عليها ضغط التغير ، كما أن له نظرات إلى الحياة لابد من أن تتطور وفق هذا التغير من ناحية ، كما لابد للتغير نفسه أن يتأثر بها من ناحية أخرى .

وينبغي أن ندرك قبل كل شيء ، أن الأمور الجنسية ذاتها ليست من الخبرات الجديدة على فتى ، أو فتاة ، في سن الثانية عشرة ، فإن الغريزة الجنسية موجودة منذ الولادة ، وهي نفس الغريزة التي ندرك نشاطها أثناء المراهقة ، وإن اختلفت مظاهرها في هذه المرحلة من حياة الفرد ، إذ نجد أولاً أن النزعات الجنسية لا تتجه نحو الإشباع الحقيقي ، إلا عند المراهقة . كذلك نجد في خدمتها منذ بدء النضج الجنسي أعضاء جسمانية قادرة على القيام بالوظيفة الجنسية . أما قبل ذلك فقد كان السلوك الجنسي منصّباً على أشياء أخرى ، وكان يظهر في صور مختلفة أشد الاختلاف .

قد تبدو هذه النظرة إلى الجنس لأول وهلة بعيدة عن المعقول ، ولكن بعض الفهم للمشكلة الحقيقية خليق أن يجعل ذلك أمراً لا مفر منه . إذ ما الغاية من التزاوج ؟ ومن السلوك الجنسي بوجه عام ؟

إن أول جواب طبيعي يتبادر إلى الذهن أن التزاوج يؤدي إلى إنسال الأطفال . صحيح أن هذه هي الغاية البيولوجية من التزاوج ، ولكن

كثيراً من الأقوام البدائية لا يكافون يدركون هذه الغاية ، فقد وجد علماء الإنسانيات منذ زمن طويل أن سكان أستراليا الأصليين لا يدركون إطلاقاً أن العملية الجنسية علاقة بولادة الأطفال إذ كانوا يعتقدون أن النساء تثر الأطفال ، كما تثر بعض أشجار النخيل جوز الهند ، وكما أن بعض النخيل تحمل الثمار ، وبعضها لا تحمل شيئاً ، كذلك النساء يلد بعضهن أطفالاً ، ولا تلد الأخريات . وتنجب النساء الأطفال لأن الأرواح قد وضعتهم في أرحامهن ، أما الزواج فلا دخل له في ذلك .

وإذا كانت تلك هي معتقدات القوم ، فلماذا إذن كان الرجال يتزوجون النساء ؟ الجواب البسيط عن ذلك أن الاتصال الجنسي في ذاته يفضي إلى اللذة التي يحسها الطرفان أثناء ممارسة العملية الجنسية . وقد ذكر أحد علماء الاجتماع الشرقيين ، في كتاب له نشر حديثاً ، أن ارتفاع نسبة المواليد بين طبقة الفلاحين والعوام في البلاد العربية يرجع إلى أن حالة الفقر والظروف البدائية التي يعيش فيها أفراد هذه الطبقة لا تجعل في مبسورهم سوى هذه الوسيلة ، وهي الزواج ، للحصول على اللذة رخيصة مبهلة .

والعنصر الجوهري في هذه اللذة هو استثارة منطقة محدودة من الجسم هي مناطق الشهوة التناسلية (أى أجزاء الجسم التي تستطيع إذا أثرت ، أن تحدث لذة « شبقية » نوعية) ، وهي تشمل عادة الأجزاء التي يحدث عندها اتصال الأغشية الداخلية بالغلاف الجلدي الخارجى ، ولذلك تكثر

فيها أطراف الأعصاب ، وتوجد عند حافة جميع فتحات الجسم مثل الفم ،
والخياشيم ، والعينين ، والشرح ، والفتحات البولية ، وتلك جميعاً مناطق
أشد حساسية من سائر سطح الجسم .

وليس ثمة شك في أن الوليد يحصل أثناء الرضاعة على نوعين مختلفين
من اللذة ، أحدهما إشباع الجوع ، والثاني ينبج عن استئارة حلمة ثدى
الأم لشفتيه . واللذة التي من النوع الثاني هي التي يحصل عليها الطفل من
مص إبهامه ، أو حلمة المطاط ، عندما لا يكون جائعاً . كذلك تشعر الأم
بلذة في إرضاع وليدها بسبب إثارة شفتيه لحلمة ثديها . فهذه اللذة المتبادلة ،
وكذلك اعتماد الطفل والأم كل منهما على الآخر ، في الاستمتاع بهما ،
تعتبر عاملاً هاماً (ولكنه ليس العامل الوحيد) يؤثر في تعلق الطفل الرضيع
والأم المرضع كل منهما بالآخر تعلقاً شديداً .

ويظهر هذا التعلق الشديد في صور مختلفة ، منها نوبات الانفعال التي
تصيب الطفل عند محاولة فطامه ، ومنها أيضاً ما يبدو عليه من مظاهر الاستياء
عند ما يهيم أبوه بتقبيل أمه ، أو مداعبتها ، على مرأى منه ، فإن كثيراً من
صغار الأطفال يحاولون في مثل هذه الحالات أن يدفعوا الأب بعيداً عن
الأم ، أو تندو عنهم صرخات الغضب . كل هذه أمثلة مألوفة لنا جميعاً ،
ودلالاتها واضحة للمراقب الذي يعمل فكره فيما يقع تحت بصره .

فمن الجلي أن الطفل يريد أمه لنفسه فقط ، ولا يحتمل وجود منافس
له فيها ، وهذا هو ما يعنيه بسلوكه ، وإن لم يستطع التفكير فيه أو التعبير

عنه بالألفاظ . وهو لا يدرك الأهمية البيولوجية لما يتطلبه من أمه ، كما أنه لا يستطيع أن يستخدم القوة في تحقيق مطالبه ، بل إن كل ما يستطيعه هو جذب انتباه الأم إليه بالصراخ الذى يعلن به أنه يعاني جوعاً أو أمناً ، أو بصيحات الغضب التى تندو عنه عندما لا تستجيب أمه لصراخه على الفور . وعند ما تتقدم به السن قليلاً فإنه يصبح قادراً على التعبير بالألفاظ ، أو بأنواع أخرى من السلوك ، عن هذه العلاقة الوطيدة القائمة بينه وبين أمه ، والتى يريد استمرارها وبقاءها . ولهذا نسمع بعض الصغار القادرين على الكلام يعبرون عن ابتهاجهم بتغيب الأب ، فإن ذلك يتيح لهم الاستئثار بعناية الأم ، أو يصرحون برغبتهم فى الزواج من أمهاتهم عند ما يبلغون مبلغ الرجال ، أو يتحدثون عن إبعاد آبائهم عن البيت .

أضف إلى ذلك أن هذا الطفل النامى يبدأ فى اكتشاف مصادر أخرى للذة فى جسمه ، وهى مصادر لا تتصل بالعلاقة القائمة بينه وبين أمه . فعملية التبرز ، أو التبول ، تولد عنده ضرباً من اللذة ، لأن خروج البول والبراز يشير مناطق الشهوة التناسلية ، كما يقضى على حدة التوتر الذى يضيقه ، فهو لذلك يولد اللذة ، ويفضى إلى الراحة .

ومن اليسير على من يلاحظ الأطفال أن يشعر بوجود اللذة البريئة التى يشتقونها من هذه العمليات ، فإن هذه اللذة خلو من كل شعور بالخجل ، ولذلك لا يتردد الأطفال فى ممارسة هذه العمليات علناً ، بل إنهم قد يجذبون الأنظار إليهم أثناء أداؤها ، ويتحدثون عنها فى غير ما حرج ، وقد يدعون أصدقائهم

مشاهدتهم وهم يتبرزون ، ويرون في ذلك موضعاً للتفاخر ، ولذلك نجد أن عبارة مثل : « أنظر ماذا فعلت ! » ، أو : « أليس هذا كثيراً » ، من عبارات الأطفال الشائعة المألوفة . ولا يظهر عليهم الحرج أو الخجل إلا عندما يدركون أن الكبار يحسون ذلك ، وعندما يصبر آباؤهم على ضرورة أداء هذه العمليات في مكان خاص ، وعدم الخوض في الحديث عنها .

كذلك يكتشف الصغار ، بنين وبنات على السواء ، بطرق مختلفة ، أن لمس أعضائهم التناسلية يقضى إلى اللذة ، فإن هذه الأعضاء ، على الرغم من عدم اكتمال نموها ، شديدة الحساسية . ويبدو أن تلك مرحلة طبيعية يمر بها الصغار في طفولتهم وغلوامتهم المبكرة ، وأنها سرعان ما تنتقضى ، ويعفى عليها النسيان التام .

ومسألة الجنسية الطفلية ^(١) ، هذه على أكبر جانب من الأهمية ، ولم يكشف عنها إلا منذ وقت قريب ، وذلك بفضل جهود (فرويد) وأنصار مدرسته . وأهم ما يهمننا من تعاليم هذه المدرسة أن الغريزة الجنسية لا تظهر فجأة عند المراهقة ، بل إنها موجودة منذ سنوات المهد ، وتعبر عن نفسها منذ سنوات الحياة الأولى . ولكن عدم اكتمال نمو الأعضاء التناسلية وقتئذ يجعل إشباعها يتخذ صوراً طفلية ، تختلف عن صور الإشباع التي نعرفها عند الكبار .

(1) Infantile Sexuality

ويشتق الطفل العناصر التي تتكون منها فكرته عن نفسه من علاقته المبكرة بأمه ومن الاتجاهات النفسية التي تتولد عنها . وعندما تنمو قدرته على التفكير والكلام يصبح في وسعه التعبير عن هذه الفكرة . ويتخذ هذا التعبير صورة قصة تدور حول مخلوق صغير باسل ، يقوم بأعمال تدل على الذكاء والجرأة ، ويتغلب على خصوم أشداء من الحيوان والبشر ، حتى يعثر على كنز ثمين (أو على ما يقوم مقامه) ، وتلك هي أسطورة البطل .

ولقد كانت أسطورة البطل منذ القدم موضوعاً لمعظم الخرافات الشعبية والقصص الخيالية التي تبعث البهجة إلى نفوس الصغار النامين ، وأخذت محوراً للقصص التي تكتب لتسلية الأطفال . كما أنها كانت الفكرة المحورية في عدد من القصص المسلسلة التي تدرج في صور ذات ألوان زاهية براقعة في بعض المجالات الأمريكية المصورة (وهذا النوع المصور من القصص يعتمد في فهمه على المصور لا على الكتابة) ، وهي مجالات غزت كثيراً من بلاد العالم .

فنجده في القصة الإنجليزية أن البطل (سان جورج) يصارع التنين الهائل الذي روع البلاد ، ويصرعه ، منقذاً بذلك ابنة الملك الجميلة من برائنه . أما في القصة اليهودية فنرى البطل (داود) يخرج إلى العملاق الفلسطيني (جولياث) ، مسلحاً بمقلعه ، فيتغلب عليه ويقتله ، بعد أن ظل هذا العملاق مبعثاً للرعب في نفوس الجيوش اليهودية زمناً طويلاً .

كذلك نقرأ في الأسطورة اليونانية أن البطل (يوليسس) ، الذى جمع
الدهاء إلى الجرأة ، يخطط العملاق (بوليفيموس) وينقذ رفاقه من ضروره .
ونقرأ فى قصة (جاك وعود النبات) كيف أن البطل الصغير (جاك)
يتسلق فى جزأة متناهية بيت المارد ويقضى عليه .

إن بعض هذه القصص لا يقوم على حقائق ، فإن أسلوبها يتطلب
انتقاء عناصر معينة ، وصوغها بشكل خاص ، وحذف بعض الأشياء ،
والمغالاة فى البعض الآخر ، حتى تصبح القصة فى النهاية مسامرة للطراز
السائد . ويستمتع الطفل بالقصة لأنه يرى نفسه فى صورة البطل ، أو بتعبير
سيكلوجى ، أنه « يخلع » البطل على نفسه . وهو إذ يستغرق فى قراءة
القصة ينسى الزمان الذى يمر من حوله ، والمكان الذى يعيش فيه ، فيصبح
هو سان جورج ، أو داود ، أو يوليسس ، أو جان دارك ، أو صلاح الدين .
وهذا أمر سهل بالنسبة إليه ، لأن القصة التى يقرأها هى نفس القصة التى
يرودها عن نفسه ، وعلى مسمع من نفسه ، طيلة حياته . فهو البطل ، والموقف
الذى تصفه القصة هو موقف الطفولة الذى كان هذا الصغير الضعيف يشتهى
فيه التغلب على أبيه وامتلاك أمه . وعندما تقدمت به السن وبدأ فى
التفكير عن نفسه بلفظ « أنا » ، فإنه إنما غدا يتحدث عن « أنا » (أى
ذات) قد اصطبغت بلون صورة البطل .

وتعتبر أسطورة البطل فى نظر الطفل ، لا عن عمل ، بل عن رغبة .
فهى تعويض عن حرمان ، لأن الأب شخص قوى حكيم ، والطفل يرغب

فى أن يكون أشد منه قوة وأوفر حكمة ، فيهزم عملاق الأسطورة بما أوتيته من القوة الموفورة ، والحكمة السامية . (فشمشون) كان أحكم أهل فلسطين جميعاً ، ولذلك استطاع أن يحل اللغز الذى وضعوه له ، بينما لم يستطيعوا هم أن يحلوا اللغز الذى وضعه لهم . كذلك يحل (أوديب) لغز أبى الهول ، ذلك اللغز الذى حير سواه ، وعندئذ يختفى الوحش البغيض بعد أن تندو عنه صرخة مروعة . وبالمثل يفهم عيسى الطفل أئمة أخبار اليهود فى نواحي العلم التى أتقنها . ومن اليسير الإسهاب فى ذكر الكثير من هذه القصص .

فأسطورة البطل إذن إنما هى نتيجة لشعور الطفل بقصوره ونقصه ، وهى القصة التى يسردها على نفسه كنوع من التعويض . وقد ينزوى بنفسه ، قدر ما يسهه ذلك ، عن العالم الخارجى وما يحفل به من حقائق قاسية تناقض رغائبه ، فينكر الحقيقة ، ويعيش فى عالم من الأحلام ، أو قد يحاول أن يمثل فى لعبه ما يتخيل أن البطل يقوم به من فعال . وبذلك يكون فى مقدوره أن يوفق بين حياته الخيالية البسيطة ، وبين حياة الواقع ذاتها . ويتعلم الطفل عن طريق هذا النشاط أن يعرف نفسه ، وأن يتدرب على العمل ، كما يصل إلى بعض المعلومات عن كيانه الجسمى ، وحدود قدراته ؛ وربما اكتشف فى أى الاتجاهات ، وبأى الصور ، يستطيع أن يترجم الأسطورة إلى لغة الحقيقة . وهل عليه أن يتغلب على العالم بأعمال الجرأة والإقدام ، أو بالقوة أو الدهاء ، أو بالعمل المضنى ؟ وما الفعال التى

يتخيل نفسه قائماً بها ؟ وما النتائج التي يتوقعها من ورائها ؟
من كل ذلك نصل إلى نقطة هامة في المشكلة التي نتناولها بالبحث .
فالغلام الصغير يريد أن يكون بطلاً ، ولكن ما البطل ؟ تعرف معاهم
اللغة الإنجليزية البطل بأنه :

« رجل يمتاز بالشجاعة الفائقة ؛ شخص جليل الشأن ؛ الشخصية
الرئيسية في السيرة أو القصة ؛ (والأصل فيه) رجل ذو قوة خارقة ،
أو نصف إله . »

وأحلام اليقظة التي تحدث للأطفال في سن الحادية عشرة تصور الغلام
في صورة شخص لا ينطبق عليه تعريف واحد من هذه التعاريف ، بل
تنطبق عليه جميعاً . فهو ذو قدرات خارقة ، يقوم بحيل تحير الرجال العاديين
جميعاً ، وتجعل جماهير المشاهدين يصفقون له إعجاباً وإكباراً ، كما لو كان
جليل الشأن حقيقة . ويكشف تحليل هذه الضرب من أحلام اليقظة على
أنها قصص خيالية يمكن وراءها تاريخ حياة الطفل الشخصية ، فهو الذي
يقوم بالدور الرئيسي فيها ؛ وقد يظهر في القصة كما لو كان مندفعاً نحو بناء
قد شب فيه حريق مروع ، جعل المشاهدين يحجمون عن التقدم إليه ،
ولكن البطل الصغير يشق طريقه وسط هذا الجمع الخاشد الوجل ، ويتسلق
السلم المتداعى ، ثم يدخل غرفة في الطابق العلوى قد حبست النيران فيها
رجلاً مسناً ، أو سيدة ضعيفة ، أو فتاة ، ويصرخ سجين النيران في يأس
طالباً العون والنجاة ، فيحمله البطل ، وينزل به إلى الشارع حيث تستقبله

جموع الواقفين بالتهليل والإكبار . هذا هو حلم اليقظة المألوف ، وهو إلى جانب ذلك من الحوادث الشائعة في القصص التي تكتب للأطفال في هذه السن ، كما أنه الصورة التي تسجل بها بعض الصحف المنتشرة حوادث الحرائق ، ولو أنه ليس أسلوب الصحف الراقية . أضف إلى ذلك أنه يمثل قصة البطولة التي يحتمل أن تحدث للفرد في حياته الواقعية ، وهذا الاحتمال الأخير لا ينبغي أن تغفل عنه .

وما يثاب به الطفل على هذه البطولة هو في أغلب الأوقات الإعجاب صادراً عن الجمع الذي يشاهد ما فعله . واعتراف الناس بقدر الغلام يذكرنا بما سبق قوله عن تصفيق الإعجاب الذي كان يقابل به الفتى عند نجاحه في اختبارات التدشين البدائية . وهكذا يستطيع الطفل بمهارته وجسارته ، أو بذكائه وقوته البدنية ، أن يتغلب في الخيال على ما في طفولته من قدرات محدودة ونقائص ، ومن ثم يصبح من الضروري أن يعامله الكبار على أنه واحد منهم على الأقل .

ولا تحتاج أسطورة البطل بالصورة التي بسطناها إلا إلى القليل من التحوير لتصبح أسطورة عاطفية ، إذ يكفي أن نستبدل بتصفيق الجمع الحاشد يد سيدة جميلة حتى تغدو القصة تعبيراً عن رغبات المراهق . وهكذا نرى داود يتناول يد (ساوول) كمكافأة له على بسالته التي اكتسب بها من قبل إعجاب الجند والشعب على السواء . ونصادف في مثل هذه القصص على اختلاف صورها ألواناً من البطولة ، الغرض منها هو الظفر

بإعجاب شابة حسناء ، وكذلك رضى أولياء أمورها الذين فى وسعهم الموافقة على زواجها . فالشاب فى قبائل غينا الجديدة البدائية ليس عليه أن يثبت رجولته فى اختبارات التدشين فحسب ، بل لا بد له أيضاً أن يجمع بعد ذلك عدداً من رهوس من قتلهم بنفسه ، فيعلقها على باب دار الفتاة التى ينشد زواجها ، حتى يدلل بذلك على صلاحيته لهذا الزواج . تلك هى أسطورة البطل العاطفى فى ناحيتها العملية ... « لا يستحق الخطوة بقلب الحسناء إلا الباسل المقدام » .

نقد أصبح من الواضح الآن أن المراهقة ليست ، كما كان يعتقد الأستاذ « ستانلى هول » ، فترة ظهور الخيال ، بل إنها توجه الأخيلة المبكرة نحو مسالك جديدة ، وتنسقها أيضاً . ونجد أن النمو القوى فى القدرة على النقد ، واتساع دائرة الخبرة ، من شأنهما أن يعينا المراهق على نسج أسطوريته حول نفسه بشكل أقل إسرافاً وسخفاً من ذى قبل ، كما يجعلها تبدو ، عندما يتحدث عنها ، كما لو كانت أسلوباً معقولاً من أساليب الحياة ، إذ نراه يقول : « سأفعل كذا ... فإن ذلك يؤهلنى لأن أتقلد منصباً أتقاضى منه راتباً ضخماً يساعدنى على الزواج » . ولكن هذه العبارات الجامدة تخفى وراءها كثيراً من التفاصيل التى حذفت عن قصد نتيجة للذكاء النقدى ، أو كبتت لتعارضها مع عناصر الشخصية الأخرى . وهكذا تختفى ألوان القصة البراقة ، وحوادث الحريق ، من مثل هذه الخطوة المترنة . ومع ذلك تظل تؤدى معنى التأكيد الآتى : « سوف أتغلب على

الصعاب ، وأكتسب لنفسى بيساى وإقدامى مركزاً ورفيقاً فى الحياة » ،
أر بعبارة أخرى : « سأصبح بطلاً » .

ويتوقف المعنى الصحيح لكلمة « بطل » فى نظر الطفل على درجة
نموه من ناحية ، وبيئته من ناحية أخرى ؛ فقد يكون البطل ملاكاً اشتهر
أمره وقتئذ ، أو طياراً بأسلا مثل (السكولونيل اندبرج) الذى غداً عقب
عبوره المحيط الأطلسى بطائرته الصغيرة بطلاً عظيماً فى نظر آلاف الأطفال
الأمريكيين ، كما أنه قد يكون كوكباً سينمائياً يمثل أدوار رعاة البقر ،
ونحيا على الشاشة البيضاء تلك الحياة التى يحلم الطفل بأنه يحياها . وإذا
انتقلنا إلى مستوى ثقافى أرقى من ذلك ، وجدنا أن البطل قد يكون
مستكشفاً يعرض نفسه لشتى المخاطر فى سبيل ارتياد بلاد جديدة لم تطأها
قدم أحد من قبله ، أو عالماً جليل القدر — وإن كان يبدو أن قصة البطل
تتطلب فى هذه الحالة أن تكون مخترعات هذا العالم مما يستخدم فى الغلبة على
الأفراد أو الجماعات المعادية أو الشريرة . وقد تتغير صورة هذا البطل المثالى
عدة مرات أثناء نمو الطفل . فهذا هتلر مثلاً يذكر لنا فى كتاب « كفاحى »
أنه كان فى صغره يرى فى القس ذى المسوح القائمة مثله الأعلى الذى يصبو
إليه ، أما بعد ذلك فقد حل الفنان محل القس ، ثم رئيس الحزب ، وأخيراً
زعيم الأمة . كذلك قد تظل صورة البطل المثالى ملازمة للفرد ، فتؤثر
فى أسلوب حياته وعمله . فإذا اتخذت طفلة من معلمتها مثلاً أعلى لها ، فإنها
قد تكرس كل جهودها لعلها ودراستها حتى تغدو فى النهاية معلمة قد تبذل

النموذج الذى سارت على هداه .

وقد انتشرت منذ القرن الماضى صورة جديدة لأسطورة البطل ، هى القصة البوليسية . ولا يتحتم فى هذا النوع من القصص أن يكون البطل شجاعاً بأسلا ، أو قوى الجسم مفتول العضلات ، فإن مواطن قوته تتركز فى مهارته فى الاستنباط ، واستخلاص النتائج الذى يغفل عنها الآخرون ، متوصلاً بذلك إلى الكشف عن مرتكبى الجرائم ، وتقديمهم للعدالة . ونقد أدرك مبتكر هذه الشخصية ، وهو « إدجار ألان پو » ، العلاقة المنكينة بينهما وبين شخصية (أوديب) فى الأسطورة اليونانية ، فسجلها فى قصته المعروفة باسم « أنت الرجل » .

وتبدو القصة البوليسية لأول وهلة بعيدة الشبه بأسطورة البطل إلى درجة كبيرة ؛ ولكن التأمل فيها يكشف عن عناصر مشتركة بينهما . فإن « جابريو » ، و « پو » ، و « كونان دويل » ، « دوروثى سايرز » ، و « أجاثا كريستى » ، وغيرهم من مشاهير كتاب هذه القصص المشهورين ، يقدمون لنا صوراً مختلفة لهذا الرجل الخاص الذى يبدو فى بادىء الأمر عاجزاً عن استقصاء الجرائم ، كما بدا داود لقومه غير قادر على قتل جولياث ، أو سان جورج على صرع التنين . وبالمثل نجد فى قصص الأبطال أن بطلا يدل ظاهره على تفاهة شأنه يستطيع أن ينجح فى الكشف عن المجهول الذى أخفق سواء من الأقوياء الممتازين فى سبر أغواره ، ونجد فى القصة البوليسية أن ضابط المباحث الرسمى ، وخبراء سكتلنديارد الانجليزية ، أو

دائرة الأمن الفرنسية ، يفشلون في حل معميات الجريمة ، حتى يتدخل المحقق الخاص ، ويستعرض أمامهم فنون الملاحظة والاستنتاج . ولذلك يلمس الطفل في هذه القصص ، على اختلاف صورها ، ما يماثل أسطورة البطولة التي حاكها حول شخصه .

ويدلل المحقق الخاص على أنه عضو هام في المجتمع عن طريق اعتراضه سبيل المجرم الخارج على القانون ، ونزع القناع عن وجهه ، وتسليمه إلى العدالة لتقتص منه . فهو يدافع عن القانون الذي يرمز إلى إرادة المجتمع ، ضد الشخص الذي خالفه وانتهك حرمة . ولهذا نستطيع ، إذا شئنا ، أن ننظر إلى حل لغز الجريمة على أنه اختبار تدشين .

كذلك يكون المحقق الخاص في معظم الحالات شخصاً غريب الأطوار فكل من (أوجست دوبان) في قصص (يو) ، و (شرلوك هولمز) في روايات (كونان دويل) ، رجل يؤثر حياة العزلة ، ويعيش بين كتبه وبحوثه في غرفة هادئة . كما أن كثيراً من أبطال القصص البوليسية يكونون ممن لا يميلون إلى الاندماج في حياة المجتمع ، وقليل منهم من يبدي اهتماماً بالحياة الاجتماعية المألوفة . ونجد بعض القصص البوليسية الأمريكية الحديثة تصورهم على هيئة « رجال يقومون باستقصاء حقيقة المسائل الخاصة » ، يكرههم رجال الشرطة الرسميون ، ويشكون في حقيقة مراميتهم ، كما أنهم لا يلقون ترحيباً في دوائر المجتمع ، ويمقتهم المجرمون ، أي أن طبيعة عملهم ، بعبارة موجزة ، قد أفضت إلى عزلهم عن الحياة العادية.

للجماعة التي يعيشون فيها . وهم يحملون نواء البطوة ، ولكنهم قد لا يحضون
يا كبار الجماعة ، على الرغم من تفوقهم على من وضعتهم الجماعة موضع التقدير
والاحترام .

ويلجأ كثير من الكتاب إلى أساليب خاصة يبرزون بها قدر البطل
في القصة . فالثك يتجه منذ البداية نحو أفراد معينين هم الذين يلتقى عليهم
رجال الشرطة العاديين القبض في معظم الأوقات . كما أن بعض الأشخاص
من ذوي المكانة والرأى السديد يعبرون عن يقينهم بأن مرتكب الجريمة
شخص معين ، ويلجئون على رجال الشرطة في القبض عليه . ولكن
المحقق الخاص يثبت للجميع في النهاية أن الجريمة قد ارتكبت بواسطة
شخص لم يتطرق إليه اتهام أحد سواه . وهو دائماً مصيب في استنتاجه ،
أما الباقيون فعلى خطأ دائماً .

ولقد أشار (توماس كارليل) في محاضرة له عن « الأبطال وعبادتهم »
إلى أننا نجد في مستويات النمو الثقافي المختلفة أن الرجل العظيم ، أو البطل ،
يظهر على صور شتى ، فقد يكون إلهاً ، أو نبياً ، أو جندياً ، أو من
رجال الأدب . وفي حلم البطولة الذي ينسجه الطفل حول نفسه يكون
البطل أحد رجال الشرطة ، أو رجال الحريق ، أو طبيباً ، أو معلماً ، أو من
رعاة البقر ، أو جندياً ، أو ملكاً ، أو طياراً ، أو سائق سيارة ، أو عالماً ،
أو قساً ، أو نافخ بوق . وقد يكون البطل قوياً بأسلاً ، أو على جانب من
الذكاء ، ولكن لا بد له إلى جانب ذلك من أن ينجح من حيث أخفق

الزعيم المعترف به في الأسطورة فهو ليس شجاعاً أو ذكياً فحسب ، بل إنه أشجع الجميع وأشدهم ذكاء ، وقادر على التدليل على قدرته الشاملة ، أو معرفته المحيطة بكل شيء ، أو كليهما معا ، وهي الصفات التي كان يراها في أبيه أثناء طفولته . وهكذا تستمر الأسطورة في إظهار الاعتراف العام بتلك الصفات .

وكما ازداد فهمنا لمصادر هذه القصص وتطورها قلّ ميلنا إلى اعتبارها مجرد هراء وهذيان . فهي على الأقل تصر على أنه لا بد للاعتراف بالشخص كمضوهم في الجماعة من أن يدلّل على أنه يمتاز بقسط وافر من المزايا التي تحظى بإعجاب المجتمع وتقديره . إذ نراها تعبر عن الرغبة في إظهار البسالة ، والمعرفة الواسعة ، والتفوق على الأقران . كما تعبر عن الرغبة في أن يُبدّى البطل أولئك الذين اشتهروا بالحكمة والشجاعة . ولو ارتبطت مثل هذه الرغبات بالنشاط العملي المنتج لأصبحت ذات قيمة عظيمة حقا ، ولكن يخشى منها أن تغرى الطفل بالانسحاب من عالم الحقيقة ، فلا يبذل أى جهد في سبيل التقدم ، بل يكتفى بما يتيح له حلم يقظته من إشباع ، وذلك عندما تثبط من همته تلك الهوة الواسعة التي تفصل بين حلم اليقظة وقدراته الراهنة . وقد يزيد الآباء في سعة تلك الهوة ومدى ذلك التشييط بتأكيدهم المتصل للطفل أن عالم الواقع مختلف أشد الاختلاف عن عالم أحلام اليقظة ، وبالإلحاح في مطالبته بصرف كل جهوده ناحية دروسه التي تبدو له عديمة الارتباط بمطامعه وآماله . وكما ازداد تأكيده الآباء في إضافة

خصائص إلى العالم الواقعي ، اشد ميل الطفل إلى الانسحاب منه ، وقوى
يأسه من محاولة النضال .

فلم يقظة الطفل عن نفسه ، وهو ليس أكثر من نسخة مختلفة من
أسطورة البطل ، يتضمن ما نطلق عليه أحياناً اسم « الذات المثلى » ، وهي
الذات التي تتبدى للفرد عن نفسه ، والتي يرغب دوماً في إثباتها للآخرين
عن طريق نجاحه في الحياة .

وعندما نصل إلى ما أسميناه بالموقف العاطفي فإننا نصادف مرة أخرى
ضرورة التدليل على هذه الذات لشخص آخر . فنقرأ في قصة « تاجر
البندقية » لشكسبير العظيم كيف أن رجلين من ذوى المكانة الرفيعة ،
والذكر النابه ، هما أمير مراكش وأمير أراجون ، كانا يتنازعاں التقرب إلى
(پورشيا) الحسناء . ولكن كل ما أدى إلى رفعة مكاتهما ونباهة ذكرهما
عند أبناء وطنهما لا يهم كثيراً ، بل إن ما يهم هو أنه كان لا بد لهما من
أن يجتازا بنجاح امتحاناً جديداً ، ولكنهما يفشلان فيه . أما الرجل
المجهول الذي استأثر بقلب (پورشيا) فهو الشخص الذي كان دوماً على
استعداد لأن « يحازف بنفسه ويضحى في سبيل ذلك بكل مرتخص
وغال لديه » . كذلك نقرأ في قصص أخرى كثيرة كيف أن طالب
الزواج ، وهو عادة شخص رفيع المقام ، يتخفى في زي مغن ، أو شاعر ،
أو شحاذ ، أو خادم ، ولا يكشف عن مميزاته الشخصية ، أى ذاته الحقيقية
التي تختلف عن الذات التي عرفها الناس ، إلا بعد مدة من الزمن ، وذلك

عن طريق ما يبذله من خدمات ، وما يظهره من إخلاص وولاء . وهكذا
نقرأ كيف كشف (فضل الدين) الشاعر المغمور عن نفسه أمام (لالا
روك) أثناء رحلتها إلى كشمير ، حيث عرفت (لالا) لأول مرة أن
هذا الرجل الذى وقعت فى هواه خلال الرحلة ، إنما هو الأمير الذى
ستتزوج به .

وتثير مسألة الزواج كثيراً من المشكلات ، فإن القواعد والقوانين
المختلفة المتعلقة بها تدل على مدى ما كان لنتائجها من تعقيد فى نظر الجماعات
المختلفة فى كل مكان . ولكن على الرغم من شدة اختلاف هذه القواعد
والقوانين باختلاف المجتمعات فإنها توحى بأن طبيعة المشكلة كانت واحدة
فى سائر البلاد . غير أن بعض الظروف تجعل نواحى معينة منها أشد أهمية
من سائر النواحى .

فنجده فى المجتمع الساذج البسيط أن الشاب الذى ينشد الزواج من
إحدى الفتيات إنما يطلب قطع علاقتها الاجتماعية بسائر أفراد أسرتها ،
أو وضع تلك العلائق فى مرتبة ثانوية بالنسبة إلى علاقتها به . ولذلك كان
لا بد أن يتوقع معارضة من أبيها وأُمها وإخوتها وأخواتها ، لأنهم لن
يتنازلوا بسهولة عن حقوقهم حيالها . فالفتاة فى المجتمعات البدائية ، وغير
البدائية ، تعتبر من الممتلكات ذات القيمة ، فهى تساعد أباه فى زراعة
حقله ، والعناية بماشيته ، كما تساهم بنصيب وافر فى الأعمال المنزلية ، إذ تعين
أُمها على الطهى ، وصنع الملابس ، ورعاية الصغار . وإذا كانت الجماعة

تعيش على القنص فإنها تقوم بطهي الحيوانات المصطادة ، وإعداد الملابس من جلودها وفرائها . أما في المجتمعات الحديثة فإن الفتاة تقوم بنصيب في أعمال البيت ، كما أنها قد تستطيع أداء عمل يدرّ عليها أجرا . ويُنتظر منها دائماً أن تعمل على رفع بعض أعباء المنزل عن عاتق أم مسنة ، وأن تقوم بتمريض أبويها إذا ما أصابهما المرض . وهكذا نجد في جميع المجتمعات أن الفتى الراغب في الزواج يلقي معارضة من الذين يملكون حقوقاً معترفاً بها على فتاته .

وتحدد كثير من البلاد سن « الرشد » ، وهي السن التي تعتبر الفتاة عندها حرة التصرف في نفسها ، فتتزوج دون موافقة أبويها إذا شاءت ، إذ أن بلوغها هذه السن يحرم أبويها قانوناً من أى حق لهما عليها . ولكنهما يستطيعان مع ذلك إقناعها بأن عليها حيالهما واجباً أدبياً ، فلا ينبغي لها أن تتصرف دون موافقتهم ، كما يذكّرانها بما أسبغاه عليها من حذب ورعاية في صغرها وحدثتها ، مما يجعل في عنقها نحوها بعض الالتزامات التي تستوجب أن تظل على ولائها وخضوعها لهما ما دامتا على قيد الحياة . ولكن من الواضح أن هذه الأمور ليست من العدل في شيء ، لأنها في الحقيقة ليست في صالح المجتمع ، إذ ينبغي على الشابة فيه ألا تضحي بهذه السنوات الملائمة لإنسال الأطفال الأصحاء من أجل خدمة جيل من الكهول . ولكن العاطفة ، لا العقل ، هي التي تستجيب دوماً لهذا النداء . وهكذا يواجه الشبان والشابات ناحية معقدة من نواحي المراهقة

عندما يجدون أن رغبتهم المكنينة في الزواج تتعارض مع معايير « الواجب » التي ألفوا الاهتداء بها في سلوكهم .

كذلك لا بد أن نذكر أن الشاب قد يحس ميلا إلى فتاة قد تكون في نفس الوقت مثار إعجاب غيره من الشبان ، أو قد يحدث العكس ، وهكذا قد يفضى اختيار الزوج إلى ألوان شتى من الغيرة والمشاحنة بين أفراد الجماعة ، مما قد ينجم عن اتساعه ضعف في تماسك الجماعة . وقليل من المجتمعات البدائية لم يكن في وسعه أن يصبر على مثل هذا التنازع ، فإما أن تنظم الأمور بشكل يحول دون حدوثه ، وإما أن يُحسم على الفور حال وقوعه . ومن ثم ظهرت طائفة من القواعد والقوانين والعادات الاجتماعية التي تهدف إلى تنظيم الزواج ، وتوقيع العقوبات المختلفة على من يخرج عليها ، ومن هذه العقوبات الغرامة والنفي وأحيانا الموت . وتفرد جميع الكتب التي تبحث في العلوم الإنسانية وحياة الشعوب فصولا مخصصة لتفصيل قوانين الزواج وعاداته .

ويحدث في بعض الأحيان أن ترغم التقاليد الشاب على أخذ عروسه قسراً من قبيلة أخرى ، فيغير في جماعة من رفاقه المسلحين على أرض القبيلة المعادية حيث يستخدم الحيلة أو العنف في اختطاف فتاة ، بموافقتها أو رغماً عنها . وفي حالات أخرى يكون عليه أن يترك أمر مفاوضة ذويها في أيدي كبار أسرته ، إذ يتقدم هؤلاء إلى كبار أسرة الفتاة ، ويحاولون الاتفاق معهم على زواجها من فتاهم . وتحرم القوانين في بعض الجماعات

زواج المرأة من أفراد طائفة معينة من الطوائف التي تنقسم إليها القبيلة ، أو تحرم زواج الرجل بامرأة تختلف عنه في السن ، مما يجعل دائرة اختيار الزوجة محدودة ، فيكون عليه أن يحصر اختياره في نفر معين من النساء ، أو يفقد الأمل في العثور على الزوجة المنشودة . ولو حاول أن يتزوج بامرأة حرمها عليه القوانين فإنه قد يقضي عليه هو وزوجه ، اللهم إلا إذا استطاع أن يفر من أراضى القبيلة ، وأن يلجأ إلى مكان آخر .

وكثيراً ما تناولت القصص العاطفية المألوفة حياة العاشقين اللذين حانت القوانين أو التقاليد الاجتماعية دون زواجهما . فروميو وجولييت ينحدران من أسرتين كبيرتين استحكمت بينهما العدا ، ورفض رؤساؤهما الموافقة على أى اتحاد بين أبنائهما . فلم يجد العاشقان أمامهما ، بعد عقد زواجهما سراً ، وقضاء وقت قصير معا ، سوى الاتحاد الأبدى بالموت . وهذه فكرة شائعة في المآسى العاطفية ... كما قد يحدث أن عاشقاً يرغب في الزواج من شخص معين يجد نفسه مقيداً بزواج سابق لا يخلصه من قيوده إلا الموت ، فيحاول أحد العاشقين أو كلاهما أن يقضى على حياة الزوج الآخر (أو الزوجة) ، على أمل أن يتزوج ممن يحب ، أو قد يفصم عرى الزواج القديم بالانتحار . وفكرة انتحار العشاق الذين تقف الحواجز الاجتماعية حبر عثرة في سبيل زواجهما من الصور المألوفة أيضاً في ميدان قصص المآسى العاطفية .

وتوجد إلى جانب ذلك قصص كثيرة أخرى تدور حول وصول

الشخص إلى أسمى المناصب بجهوده ، حتى يصبح في وسعه أن يحطم هذه العوائق التي تعترض سبيله ، ويحظى بموافقة معارضييه . ومن أمثلة ذلك أن (كوينتين ماتيس) إمام صانعى الصلب ، الذى يقوم مصنعه خارج كاتدرائية أنتورب ، قد عمل بضع سنوات ليصبح من الفنانين ، لأن المرأة التى أحبها كانت ابنة مصور رفض أن يزوج ابنته من رجل يعتبر فى نظره مجرد صانع عادى . كذلك استطاع (عطيل) ، على الرغم من عنصره ، أن يجعل نجمه يتألق فى سماء الحرب والبطولة ، حتى وصل إلى مركز جعله فى نظر (الدوج) وأعضاء مجلس شيوخ البندقية صالحاً للزواج من (ديدمونا) ، وجعل معارضة أبيها مثار الزايرة والسخرية .

فالموقف إذن كما يبدو فى عين الشاب يتلخص فى أنه يدرك أن ما يحول دون إشباع رغبته هو القوانين الاجتماعية التى لا بد له من الخضوع لها ، وأن الادعاء لهذه القوانين شرط أساسى لإتمام جميع أنواع الزواج . كذلك عليه أن يحصل على موافقة أولياء أمر الزوجة ، ولا بد له ، فى بعض المجتمعات ، أن يظفر أيضاً بموافقة الزوجة نفسها .

ولهذا يجد نفسه أمام مشكلة ذات ثلاثة أوجه . إذ عليه أن يختار رفيقاً يميل إليه ، وأن يدلل على كفايته وحسن تقديره فى نظر أسرة هذا الرفيق ، ثم لا بد له من أن يخضع بعد ذلك لحكم القوانين التى وضعها المجتمع .

ويحسن أن نهوّل مناقشة الوجه الأول للمشكلة مؤقتاً ، وأن نبدأ

يبحث الوجهين الثاني والثالث لهما من علاقة محدّدة بأسطورة البطل التي نتحدث عنها ، والتي ، كما ذكرنا ، تدور حول حميد الصفات وجلائل الأعمال التي يدلل بها البطل على نباهة شأنه ، والتي تجعله مقبولا في عين المجتمع . والأسطورة مصطبغة بالأثرة أو الأنانية ، إذ يكون تفكير البطل فيها منصبا على نفسه كفرد قائم بذاته ، ثم تأتى بعد ذلك مرحلة ينظر فيها إلى نفسه على أنه عضو في جماعة ، ولكنه في معظم الحالات يكون رئيس الفريق أو زعيم الجماعة .

وصفات الشجاعة ، والدهاء ، والجرأة ، والقوة ، والعلم ، التي تظهر في أحلام اليقظة ، تعمل جميعاً على السمو بشخصية الحلم ، فهي مرتبطة بحب السيطرة ، وتأكيد الذات ، والزهو ، والكبر ، والقحة . وهي تظهر أيضاً في الصور العاطفية للأسطورة ، ولكنها تقوم فيها بوظيفتين بدلا من وظيفة واحدة ، فهي تجعل الجماعة ترضى عن وجود البطل فيها ، كما تجعل البطل حبيباً إلى قلب المرأة ، وكبار رجال أسرتها ، ولكنها تكون في الوقت نفسه نوعاً من الهبة أو التضحية ، إذ يضع هذه الصفات تحت مطلق تصرفها ، أو يكرسها لخدمتها وحدها . فبدلاً من أن ينميها لنفسه فقط ، ينميها من أجل فتاته أيضاً .

وهكذا نجد في أحلام اليقظة عند كثير من المراهقين ، وكذلك في القصص والمسرحيات وأفلام السينما المشتقة منها ، أن الشاب يصور فيها

— بشكل أشد وضوحاً مما يشعر به — ماهية الزواج الحقيقية . وكثير من كتب المراهقين ، وجانب كبير من الدعاية التي توجه إليهم أيضاً ، تناقش أمر الزواج كأنه مجرد عملية فسيولوجية لا تزيد في الأهمية عن أية عملية أخرى كذلك يميل إلى البعض أن إدراك المراهق للماهية الفسيولوجية لهذه العملية ، وفهمه للغرض منها ، يكفي لعدم تفكيره فيها كثيراً ، وبذلك تصبح المشكلة قد صادفت حلها . ولكن يبدو لنا أن هذه النظرة خاطئة تماماً ، بل مؤذية أيضاً .

فالناحية الفسيولوجية في الزواج ليست أكثر من ناحية واحدة ، لأن الزواج يرمى إلى إقامة علاقة وطيدة فريدة بين فردين من جنسين مختلفين . وكل من يلحظ التأثيرات الشديدة التي تظهر على الصغار عند ما يشاهدون العلاقات الجنسية بين الأفراد — تلك العلاقات التي تصورها المواقف الغرامية في أفلام السينما — سوف يدرك مدى النفور والاشمئزاز الشديد الذي لابد للشخص العادي من التغلب عليه حتى تصبح عملية الزواج ممكنة . ولهذا النفور مصادر عدة ، فإنه ينبع عن الخبرات المبكرة ، والتنشئة الأولى ، والخجل ، والخرج ، والخوف من الضعف ، وغيرها . ويتغلب الفرد عادة على هذا الاشمئزاز بإطالة فترة الخطوبة ، إذ يحاول خلالها أن يبحث جذوره من أعماق نفسه ، ومن نفس رفيقة أيضاً . فهي فترة التخلص المشترك من الأهواء ، واطراح المخاوف والشعور بالخرج ، وبنجاحها تنتهى

فترة التكم والمواربة . فالانصال الجنسى ليس سوى مظهر واحد — وهو مظهر لا يعتبر من الناحية الاجتماعية أهم المظاهر — لحياة مشتركة تقوم بين شخصين ، يتنازل كل منهما عن أمانته ، ويندمج في شخصية رفيقه . وهذا ما نعبر عنه بقولنا إن الزوجين قد أصبحا شخصاً واحداً .

ومما لا شك فيه أن قيام مثل هذه العلاقة بين شخصين ، يفضى إلى تكوين أسرة هائلة . وهذا تصبح المؤسسات التى تعمل على نشر الزواج بين الشبان والفتيات فى نهاية مرحلة المراهقة على أكبر جانب من الأهمية الاجتماعية . فالزواج الناجح دليل صريح واضح على النضج ، وهو يختلف تمام الاختلاف عن الاتصالات الجنسية العرضية المضطربة التى لا تهدف إلى غير الحصول على الإشباع الفيسيولوجى والإثارة النفسية ، مما تدفع البيئة والتنشئة آلافاً من الشباب إلى السعى وراءه ، لعدم إدراكهم ما هو أكثر من ذلك أهمية وقيمة .

ولكن من الواضح أن تكرار الوسيلة لا يفضى إلى تكرار شدة الاستمتاع ، ولذلك فإن الاتصال الجنسى القائم على الرغبة فى الحصول على اللذة المثيرة قصير العمر . وتفضى مثل هذه الرغبة الحمقاء إلى تغيير الرفقاء بشكل مستمر ، وخيبة الأمل المتصلة . أما الدوام فلا يتوقف على المتعة التى تنتج عن عنصر واحد ، بل الإشباع الهادى المتزن الذى تفضى إليه العناصر جميعاً . وبذلك تغدو الثقة المتبادلة ، والتعاون التام ، والحب الخالص

جزءاً من الحياة ، ومصدر متعة دائمة مقيمة . وهكذا تتوقف سعادة الأفراد واستقرار الحياة العائلية ، وإنجاب الأطفال الأصحاء وإعالتهم ، وصالح الأمة تتوقف جميعاً ، إلى درجة كبيرة ، على الزواج الصالح ، وليس على عبث « كبار العشاق » ومجونهم . فالزواج السعيد هو البحر الهادئ الذى تتدفق إليه جداول المراهقة المضطربة . وإن من واجب مؤسساتنا التعليمية أن تعنى بتوجيه هذه الجداول نحو ذلك المصب العظيم .
